الايمان بالله

نقد على بحث ظهر فى مجلة نور الاسلام

« العدد الاول ، المجلد الاول . مجلة دينية علمية اخلاقية تاريخية حكمية تصدرها مشيخة الازهر الشريف اول كل شهر عربى فى ٨٠ صفحة من القطع الكبير »

منذ أمد غير وجيز وصلنى من ادارة هذه المجلة كتاب يسألنى فيه مرسله إذا كنت أرغب فى أن أبادل نور الاسلام بالعصور ، فبادرت بارسال كتاب بالايجاب راجياً للمجلة سعة الانتشار وطول العمر فى خدمة الدين الاسلامى الحنيف . وصدرت المجلة بالفعل ، وأخذت أترقب المبادلة لأرسل العصور إلى ادارتها ، ولكن أبت الادارة إلا أن تحجب عنا « نور الاسلام » بعد أن بشرنا بعض الذين لهم بالازهر صلة من كبار مدرسيه ، أن شعار المجلة سيكون : « الأدب المرضى والموعظة الحسنة » وأن طريقتها ستكون « وجادلهم بالتى هى أحسن » و « انك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء » . فتشوقت إلى الاطلاع على العدد الاول من المجلة وسعيت الى ناحية الازهر حتى عثرت على عدد فى مكتبة منزوية فى رقعة غير معروفة من رقاع الازهر الشريف ، فأخذتها جذلا فرحاً ، لعلى أفوز بشىء من الادب المرضى أو الموعظة الحسنة ، أو لعلى أعرف شيئاً من حكمة « جادلهم بالتى هى أحسن » لم أكن أعرفه . وما كدت أتصفح المجلة حتى وقعت على بغيتى ووصلت إلى ضالتى المنشودة ، ففضلت أن أنقل لقراء العصور شيئاً من « نور الاسلام » حتى أكون قد أشركت قرائى القليلين فى الفوز ببعض ما فزت به من الادب المرضى والموعظة الحسنة .

جاء فى الفاتحة ص ٣ من مقال بقلم رئيس التحرير محمد الخضر حسين ما يلى : «

« وما زال الاسلام على جلاء حقائقه وروعة حكمته يبتلى بطوائف يصدون عن سبيله فى لون من المداجاة والرياء ، وآخرين يناصبونه العداء فى جهل وغرور ، وكان أهل العلم فيما سلف على يقظة مما يعمل هؤلاء وهؤلاء ، فيقعدون لهم كل مرصد ويزيحون شبههم ويرفعون الغطاء عن سرائرهم وما تكن أقوالهم ، فيذهب باطلهم زاهقاً وتبقى كلمة الحق هى العليا » .

« ولم يكن للجادلين على الاسلام قبل اليوم طريق يهاجمونه منه غير حديث

يناجى به الرجل بعض النفوس التى يجدها على شفا حفرة من الغواية،أو تأليف بعض الكتب كما فعل ابن الراوندى وفريق من الباطنية ، وكان أهل العلم يأخذون فى دفاعهم هذه الطريقة نفسها ، فيؤلفون الرسائل والكتب ويقطعون بها مرحلة اغوائهم ويحفظون الأمة من عدوى أمراضهم » .

« أما اليوم فقد تهيأت لخصوم الدين الحنيف طرق أخرى ينفذون منها إلى مايبتغون من اشاعة قول الباطل ، أو تزيين عمل خاسر (مرحى مرحى) ومن أشد هذه الطرق خطراً الكتابة فى المجلات السيارة ، فقد يسبق الى بعض قرائها أنها لا تنطق برأى إلا يكون موزوناً ، ولا تدعو الى عمل إلا أن يكون مرضياً » .

« أجل فى المجلات خير كثير ، وفيها مع هذا الخير صحف لا تتحرى مواطن النصيحة ، فيكون لبعض ما تنشره أثر فى افساد القلوب غير يسير » .

هذا فى الفاتحة . فاذا وصلت الى صفحة ٤١ وقعت على عنوان «أصول الدين» وهو باب ثابت فى المجلة وتحته مقال بعنوان « الايمان بالله » بامضاء يوسف الدجوى . فاذا أردت أيها القارىء الضال فى مهامه الوساوس الضارب فى فلوات الجهل أن تعرف أصول الدين وأن تقف على أول أصوله وهو الايمان بالله فاقرأ ما يأتى على أنه أدب مرضى وموعظة حسنة . قال الاستاذ بيض الله وجهه وأعلى كعبه :

« منينا فى هذه العصور التى يجدر بنا أن نسميها عصور الزور والاثم والفجور (١) بقوم ينسبون الى العلم ما يتبرأ منه العلم ، فيعارضون كل شىء جاءت به الديانات بحجة أن العلم يأباه . وقد وثق بهم كثير من الناس لما بهرهم من آثار ذلك العلم المادى التى تسبى الانظار ، وتدهش الافكار ، فظنوا أن كل مايقولونه من جنس هذه المنظورات ، وأن لهم من التجديد فى المعقولات مالهم من التجديد فى المخترعات. ولكن فاتهم أن هؤلاء المتفيهقين المتحاملين على الاديان انما برزوا (٢) فى المحسوسات لافى المعقولات وفى علوم الطبيعة لا فيما وراء الطبيعة ، ولما لم يمكنهم أن يكذبوا على علم الطبيعة فى المحسوس ، كذبوا عليه فى المعقول ، فكانوا كالمدلس الذى لاضمير له،أو لا منطق له . فهو يخلط الحق بالباطل والصحيح بالعاطل ، فخانوا العلم وغشوا

«١» لقد نسى الاستاذ هذه النعوت : هماز مشاء بنميم ، مناع للخير معتد اثيم ، عتل بعد ذلك زنيم ، كما نسى أن يرمى بها أهل عصور الزور والاثم والفجور ليكون عند حدود الأدب المرضى والموعظة الحسنة . زادنا الله من أدبه وعلمه — « المصور » .

«٢» فى الاصل برزا وهو خطأ — « المصور » .

الناس جهلا بالدين وبغضاً فيه وتحاملا عليه، مع ملاحظة أنهم ليسوا أهل منطق ولا استدلال، وليس لديهم غير ذلك التمويه الباطل وتلك الثرثرة الفارغة التى ليس فيها ظل من برهان، ولا إثارة من علم، وكثيرا مايشتبه عليهم القياس الفاسد بالقياس الصحيح، والتخمين بالتبيين، والاستحسان بالبرهان. وكثيرا ماتكون المسائل هناك فى محل الفرض أو الاخذ والرد، فيحسبونها علماً، وهى فى أول مرحلة من مراحل البحث العلمى. وطالما تناقضوا (والمبطل لابد (١) أن يتناقض) فبينما هم يقررون أنهم متمسكون بالمحسوس ولايقولون بغير ماوقع عليه العيان، اذ تراهم يخبطون خبط عشواء فى ظلمات الاوهام متخطين تلك الحدود التى رسموها لانفسهم الى حضيض الخيال والتظنن والتخرص. على أن الملحدين عندنا أجهل من أن يقال إن «٢» لهم شيئاً يتقدم به العلم المحسوس أو المعقول، وأصغر من أن يكون لهم فيه ظن أو استحسان، وانما هم أذيال أولئك الماديين المتعصبين الجاهلين، كالمنافق الغمر (مرحى مرحى) الذى يقول سمعت الناس يقولون شيئا فقلته، فهؤلاء لايعدون من رجال العلم، وانما يعدون من صبية ملاحدة الغرب الذين «٣» يصفقون لهم كلما سمعوا شيئا من الترهات أو الخرافات (والمصفق يصم الآذان ولايعرف البرهان)...

دعنا من أن الشيخ المبجل لايعرف ماهو الفرق بين المعرفة والعلم والأدب كما عرفها فلاسفة العصر الحديث، على مانستبين من كلامه، ودعنا من أن الشيخ المحترم جاهل بكل لغة الا اللغة العربية فهو يتسقط مايقول وما يبنى عليه آراءه من منقولات الجرائد، لا من مظان العلم الحديث فى الكتب الرئيسية، دعنا من كل هذا، ولنتقدم الى الاستاذ فى خضوع نسائله، هل يرضيه أن يوجه اليه ملحد نفس سياق كلامه على اعتبار أنه رجل من رجال الدين، فيقول مثلا

«منينا فى هذه العصور التى يجدر بنا أن نسميها عصور الزور والاثم والفجور بقوم ينسبون الى «الدين» ما يتبرأ منه الدين. فيعارضون كل شىء جاءت به «العلوم» بحجة أن «الدين» يأباه. وقد وثق بهم كثير من الناس لما بهرهم من آثار ذلك «الدين» التى تزيغ الانظار وتبلبل الافكار، فظنوا ان كل مايقولون من جنس هذه «المعقولات»، وأن لهم من التجديد فى «الفرضيات» مالهم من التجديد فى ماهو بعد «المعقولات»، ولكن فاتهم أن هؤلاء المتفيهقين المتحاملين على «العلوم» انما

«١» السياق العربى يحتم وضع «منه» بين لابد وان «٢» الصحيح بكسر همزة ان لافتحها وهى فى الاصل مفتوحه «٣» الاملاء الصحيح ان تكون الذين بلام واحدة والا فانها تدل على مثنى لاعلى جمع وهى فى الاصل بلامين

برزوا فى « الفرضيات » لافى « المحسوسات » وفى علوم ماوراء الطبيعة لافى علم الطبيعة ، ولما لم يمكنهم أن يكذبوا على « الفرضيات » فى « المعقولات » كذبوا عليها فى « البرهانيات » فكانوا كالمدلس الذى لاضمير له أو لامنطق له ، فهو يخلط الحق بالباطل والصحيح بالباطل فخانوا « الدين » وغشوا الناس جهلا « بالعلم » وبغضا فيه وتحاملا عليه ، مع ملاحظة أنهم ليسوا أهل « علم ولاتجربة » وليس لديهم غير ذلك التمويه الباطل ، وتلك الثرثرة الفارغة التى ليس فيها ظل من برهان ولا اثارة من « دين » وكثيراما يشتبه عليهم القياس الفاسد بالقياس الصحيح والتخمين باليقين والاستحسان بالبرهان ، وكثيرا ما تكون المسائل هناك فى محل الفرض أو الأخذ والرد فيحسبونها « دينا » وهى فى أول مرحلة من مراحل البحث الدينى . وطالما تناقضوا ، فبينما هم يقررون أنهم متمسكون « بالفرضيات » ولا يقولون بغير « الموهومات » اذ تراهم يخبطون خبط عشواء فى ظلمات الخيال متخطين تلك الحدود التى رسموها لانفسهم الى حضيض الخيال والتظنن والتخرص ، على أن المتدينين عندنا أجهل واقل من أن يقال إن لهم شيئا يتقدم به الدين أو المعقول ، وأصغر من أن يكون لهم فيه ظن أو استحسان ، وانما هم أذيال اولئك « الدينيين القدماء الجاهلين » ، كالمنافق الغمر الذى يقول سمعت الناس يقولون شيئا فقلته . فهؤلاء لايعدون من رجال الدين ، وانما يعدون من صبية السلف الذين يصفقون لهم كلما عثروا على شيء من الترهات والخرافات (والمصفق يصم الآذان ولا يعرف البرهان) . . . .

أإذا خاطبه « ملحد » بهذا اللسان ، أفتراه يرضى ؟ . . .

ooo

مادية الارادات والاسباب

ننتقل من هذا الى البرهان الذى ساقه الاستاذ فى وجود الله والايمان به ، فاذا به ينزل من هذا الموضوع الخطير منزلة لايرضاها لنفسه لو أنه فقه النتائج التى تترتب على برهانه الذى مضى به فرحا طروبا . والحق أن برهان الاستاذ لايؤدى بنا إلا الى الاعتقاد بأن الله « فكرة » وأن هذه الفكرة لاتقوم على أكثر من « فرض » عقلى ولو أنه ضرورى .

يقول الاستاذ كروزيار مايلى :

« كما أن الشبح المنعكس ، من عدسة زجاجية على حائط ، ليس سوى صورة

مكبرة من ذلك الشبح الكائن فى العدسة ، كذلك النظريات الخاصة بهذا العالم ، فانها ليست سوى صورة مكبرة من نظريات العقل الانسانى ، تسبك عادة على نماذج تستمد من تجاربنا الذاتية .

وهذه الحقيقة الثابتة لا يمكن أن يتشكك فيها مادى ولا دينى . فهى قاعدة ثابتة يقوم عليها معتقدنا الذاتى فى وجود الاشياء الخارجة عن مدار الحس . على أن هذا المعتقد من ناحية أخرى لا يقوم على أساس من العلم الصحيح ، العلم المدرك بالحواس على ما حدده فلاسفة العصور المتأخرة ، وعلى ما أخذ به العلماء ، بل يقوم على ألفة خاصة فى تكوين العقل الانسانى ، قد تصح موحياتها فى الخارج أولا تصح ، لانها على أية حال تحتاج ، لكى تصبح علما صحيحا ، وعلى مايدرك من معنى العلم الحديث ، أن يؤيدها الحس وتثبتها التجربة .

على أن العلم الحسى ناقص لامحالة . لأنه كما يعجز عن اثبات وجود الله بطريقه الموضوعة ، فهو كذلك يعجز عن اثبات حقائق علمية لاقيام للعلم الحسى بغيرها . وكان هذا أول ماوجه من البراهين التى نقضت بها فكرة الفيلسوف « كونت » اذ يقول بأن فكرة وجود الله لا يمكن اثباتها من طريق « العلم » — ويقصد به العلم الحسى الحديث

من ذلك مثلا الاعتقاد فى وجود عالم خارج عن حيزنا . ذلك لان ادراك العالم الخارجى يرجع الى وجود حواسك الكائنة فيك لا الخارجة عن حيزك ، وعلى ذلك يكون فقد حواسك مانعا لك عن أن تدرك من وجود العالم الخارجى شيئا ، إلا أن تركيب عقلك قد وضع على نظام يحملك على الاعتقاد بأنها كائنة فى حيز خارج عنك . فاذا اعتقدت بما يخالف ذلك ، وأخذت تؤدى عملك بما يوحى اليك به اعتقادك هذا ، كان ذلك دليلا على أن ميزان العقل قد اختل وتفككت ألفته .

وعلى هذا تجد الحال فى اعتقادك بوجود العقل فى ذوات من البشر غير ذاتك ، والاعتقاد فى تفوق العقل على المادة ، والشجاعة على حب الملاذ ، والاعتقاد فى بقاء القوة ، أى حقيقة أن كمية القوة الموجودة فى الكون ثابتة لا تزيد ولا تنقص ، والاعتقاد فى أن المادة توجد بوجود قوتى الجذب والدفع ، والاعتقاد فى السببية العلمية . فان كل هذه الحقائق التى هى من سادات العلم الطبيعى يعجز العلم عن اثباتها بطرقه الحسية ، ويفزع فيها الى العقل يستمد من ألفته قوة يثبت بها وجود هذه الاشياء باعتبارها حقائق ثابتة ونواميس كونية .

فاذا كانت القواعد الاولية التى تقوم عليها مدركاتنا ومعارفنا العلمية المنظومة

يجب أن يعتقد بها ولو لم يكن فى مستطاع « العلم » أن يثبت وجودها ، فان أقوى برهان يقيمه « كونت » فى وجه الفكرة فى وجود الله ، اذ يقول بأنه لا يمكن اثباتها من طريق العلم ، يضعف ضعفاً بينا .

وإذن فليس للعلم صلة بفكرة وجود الله . بل الصلة الثابتة هى بين ألفة العقل وما يدرك من حقيقة الوجود . وفى هذا ينحصر برهان الاستاذ الذى يحاول أن يقيمه على حقيقة الايمان بالله ، ويذهب فيه مذهب الفرضيين اضطراراً لا اختياراً ، لانه لا سبيل الى إثبات الفكرة فى وجود الله بدونه فهو يقول فى ثبت مقاله .

« كان ينبغي ألا يختلف فى هذه الحقيقة لان دلالة الأثر على المؤثر والنظام على المنظم والفعل المحكم على الحكيم ، بدهية ، بل قالوا إن ذلك مما يدركه الحيوان ، فضلا عن الانسان . » . . . . . فالاستاذ من هذه الناحية عند قول الذين يقولون البعرة تدل على البعير ، والأثر يدل على المسير — وهذا ولا شك ، على الرغم من أنه أمر ضرورى ، بحكم طبيعة العقل والكفايات الانسانية ، من أكبر ما يصيب الاديان من الضعف فى ارتكازها على فكرة وجود الله .

لقد ذاعت الفكرة المادية فى العصور الحديثة وظهرت بارزة قوية ، عندما أذاع الفيلسوف « كونت » رأيه فى الارادات والاسباب حيث قال —

« ان الانسان اذا عجز عن تعليل ظاهرات الكون ومعرفة أسبابها الطبيعية ، عزاها الى قوى شبيهة بقواه البشرية »

ومما لا مشاحة فيه أن نظرية « كونت » هذه تنطبق تمام الانطباق على الحالة التى يحار فيها الفكر ويعجز عن بلوغ الاسباب التى تعود اليها الظاهرات ، وبعد هذه النظرية عن مغمضات الكلام الفلسفى ، جعلها شديدة الأثر فى اذهان الناس . ومما جعلها أشد تأثيراً فى العقول وأبعد منعة عن مجال النقد ، أنه مامن استكشاف الا وأيدها ، إذ به يعرف الناس أصلا طبيعياً جديداً تعود اليه ظاهرات ، كانوا من قبل ينسبونها الى ارادات مثل ارادتهم ، لا الى قوانين وسنن طبيعية ، بعيدة عما كانوا يعتقدون به كل البعد .

يقول « كونت »

ان الاعتقاد فى إرادات أو ذوات عاقلة . لم يكن الا تصورا باطلا تخفى وراءه جهلنا بالاسباب الطبيعية . أما الآن وكل المتعلمين من ابناء المدنية الحديثة يعتقدون بان كل الحوادث الكونية والظاهرات الطبيعية . لا بد من أن تعود الى سبب طبيعى ،

وانه من المستطاع تعليلها تعليلا علميا مبناه العلم الطبيعى ، فلم يبق ثمة من فراغ يسده الاعتقاد فى وجود الله ولم يبق من سبب يسوقنا الى الايمان به

ولا نكران مطلقا فى ان الاعتقاد بالله اذا ارتكز على ضرورة العثور على بيان ما بعد الطبيعة يفصح به عن حقيقة الظاهرات الطبيعية التى لا يمكن تعليلها بغير استدرار وحى ماوراء الطبيعة ، يصبح اعتقادا غامضا محوطا بالريبة فى نظر العقليين والطبيعيين معا ، بل ان هذا الاعتقاد يمسى عرضة للزوال امام اضعف البراهين الطبيعية . غير ان موضع الضعف فى تدليل « كونت » ومن تابعه فى الرأى تنحصر فى اعتقادهم بانه لا يوجد فى العالم من شىء يحتاج الى التعليل اكثر من وصل الحلقات المتفرقة فى سلسلة الظاهرات الطبيعية التى يتكون منها العالم فى مجموعه بعضها ببعض ، فى حين ان الحقيقة ان السلسلة فى مجموعها باعتبارها كلا متواصل الاسباب ، غير ممزق الوحدات ، يظل سببها الاول غير معروف ولا مدرك .

ليس يكفى ان تعلل لنا الاسباب الطبيعية كيف ينشأ الانسان من ابويه وكيف نشأت القرون الاولى من قبله ، بل الواجب أن يكشف الطبيعيون ، لكى يصح استدلال « كونت » ، عن علة وجود الانسان اصلا فى هذه الحياة الدنيا .

وحتى بعد أن اثبت الطبيعيون ان الانسان تاج لسلسلة من التطور والنشوء الطبيعى محتوم أن تنتهى الى الغاية التى عندها ظهر الانسان فى الوجود ، فان العقل يظل فى حيرة من حقيقة هذا النظام الذى اسلم فى النهاية الى وجود الانسان فى هذه الحياة وعلى هذه الصورة . ذلك لان تعليل الاجزاء لا يسلم العقل بانه تعليل للكل فى مجموعه

لا يكفى أن يعرف الطبيعيون كيف انشأت سنن التطور والارتقاء الاحجار والاشجار والازهار والحيوان والانسان ، بل يجب ، لكى يصل الى دليل ينقع غلة العقل الانسانى لدى بحثه فى اصل الوجود ، ان يعللوا ببراهينهم الطبيعية ، لماذا خصت الذرات التى تتكون منها الاشياء المادية ، بخاصيتى الجذب والدفع ، ولم تخص بصفة اخرى ؟

فى حالة من الحالات ، كانت المعرفة الانسانية بوجوه الاتصال بين الظاهرات المختلفة ضئيلة الى حد مست الحاجة عنده الى فرض مجموع فى مختلف الآلهة يرجع الى كل منهم السبب فى وجود كل حلقة من حلقات الظاهرة منفصلة عن المجموع . ولما ضربت الانسانية بقدمها الثابت فى سبيل العلم الطبيعى ، قلت الآلهة تدرجاً ، ولم يبق منها إلا نزر يسير معللا به بعض الظاهرات التى كانت أسبابها لا تزال رهن التحقيق العلمى ، ومضت العقول بعد ذلك ممعنة فى الكشف عن كثير من حقائق الكون

حتى استقر اعتقادها فى النهاية على إله واحد ، اقتصرت ارادته على التدخل فى بعض الظاهرات دون بعض ، و بطرق وسمت بميسم العلم والحكمة .

يقول الطبيعيون اليوم بان الظاهرات الطبيعية المختلفة يمكن تعليلها بأسباب طبيعية ، أو هى قابلة لأن يكشف عن أصلها بالعلم الطبيعى . فهل هذه الفكرة ، ان صحت ، تغنينا عن الاعتقاد بوجود الله ؟على الضد من ذلك اعتقد ان هذه الفكرة لا تغنى عن الاعتقاد بالله شيئاً ، وان كل أثرها محصور فى انها تضعه وراء عالم الظواهر لاغير . تبعده عن التدخل المباشر فى احداث وجوه الاتصال بين الظاهرات الجزئية ، وتجعله مرجع الكليات العامة ، مرجع القصد والنظام ، وعلة الكون فى مجموعه .

قبل أن يستكشف قانون جاذبية الثقل اعتقد « كبلر » أن حفظ السيارات فى أفلاكها راجع الى أرواح موكلة بها . أى أنه نسب السبب الطبيعى الى ارادة مثل ارادته ، عند ما أعوزه السبب الذى تعوداليه الحركة . فلما عرفت جاذبية الثقل ، سكن العقل البشرى اليها ولم يحاول مرة اخرى أن يعلل حركة الاجرام . ولكن الايحاج العقل البشرى الى البحث عن سبب ترجع اليه جاذبية الثقل وأثرها فى نظام الكون ؟

ينكر « كونت » والماديون أو هم يتناسون على الاقل ، أن الحلقات المتتابعة التى تتكون منها سلسلة الظاهرات الكونية،ان كان من المستطاع تعليلها بالاسباب الطبيعية، فان السلسلة كمجموع و وحدة غير محللة ولا منفصلة الاجزاء ، قد ظلت فى الماضى والحاضر، وستظل عند العقل فى المستقبل، محتاجة الى تعليل ، والى سبب، اليه تعود ومنه تنشأ . ولما كانت هذه الحقيقة ذاتها غير مستطاع أن تصل اليها الاسباب الطبيعية بتعليل ، كان لامندوحة لنا ، بحكم قانون « كونت » نفسه من ارجاعها الى حكم إرادة حرة أو « الله » .

اما اذا حاول الماديون أن يقولوا بانا لسنا مرغمين على الاعتقاد بوجود الله مع هذا ، ظهر قولهم بعيداً عن الحكمة ، لأنك اذا لم تعتقد بوجود الله لتعليل الكون فى مجموعه ، نقضت حجر الزاوية من قانون « كونت » الذى سلمنا مع الماديين بأنه حقيقة ثابتة ، ولتفككت مع نكرانا لوجود واجب الوجود ، (عقلا) كل ألفة للعقل ، وهو الاداة الوحيدة التى تستطيع بها الذوات الفانية البحث وراء الحقيقة، كما أنه مرجع اليقين والاعتقاد .

قد يقول البعض ان الانسان استكشف من السنن الطبيعية ما استطاع به أن يعلل كثيراً من الظاهرات التى كانت تنسب دائما الى ما بعد الطبيعة والغيب ، فلم لا نؤمل

أن نستكشف فى المستقبل علة الكون ؟ وعلى هذا القول يرد الاستاذ كروزيار بقوله « إن كل ما استكشف الانسان من الاشياء التى تكون مدنيته وعلمه، ليست سوى سنا ترجع اليها الظاهرات ، لا عللا أصلية . ولهذا نرغم على أن نعود بعلة الكون الى آله عاقل حكيم ، مادمنا لانستطيع ، وليس فى مستطاعنا ، أن نعرف للكون علة اخرى »

° * °

لقد تابعنا رأى « كونت » على اعتبار أنه منكر لوجود الله . والحقيقة على نقيض ذلك . فان « كونت » ان كان لا يعتقد فى علة العلل ، وكل براهينه تسوق الى هذه النتيجة ، فانه لم يبلغ فى كلامه حد انكارها نكراناً تاماً مطلقاً ، بل على الضد من ذلك يقول انك اذا لم تجد من بد من أن تكون نظرية فرضية فى حقيقة علة الكون ، وذلك عنده خرق كبير ، فان نظرية فرضية مبناها وجود عقل مدرك مدبر للكون ، أرجح من انكار وجوده . ولكن معتقدك فى نظر « كونت » لا يصبح أكثر من « فرض »

أما السبب فى هذا التناقض الواقع بين مبنى آراء « كونت » المنطقية التى يرجع اليها معتقده من جهة ، وبين اعترافه بعلة الكون فرضاً من جهة أخرى ، فيعود الى أن « كونت » بينما كان يشعر بأنه لا ضرورة للاعتقاد بوجود الله ليعلل من طريق الانكار وجوه الاتصال بين الحلقات المنفصلة فى سلسلة الظاهرات الطبيعية فى الكون ، فانه لم يستطع أن يخرج بنفسه وعقله عن النتائج التى يؤدى اليها قانونه فى « الارادات والاسباب » ، إذ يجر المتأمل فيه حتما الى القول بأن الكون كوحدة يجب أن يرجع الى سبب ، وان هذا السبب بمقتضى قانون « كونت » نفسه ، يجب أن يكون علة مريدة مدركة .

تلك هى البراهين التى صدع بها العلامة « كروزيار » وغيره من المفكرين فكرة « كونت » فى أواخر القرن الماضى ، وتركت المادية حيث كانت من قبل « كونت » وحيث وقفت سفينتها بين متناوح رياح الفكر تتقاذف بها انواؤه .

° ° °

الاعتقاد بالله والسببية العلمية

يتقعد الكثيرون من أصحاب العقول الراجحة فى هذا الزمان انه ليس فى الفلسفة من شىء هو أبعد عن ألفة العقل ، من تلك الفكرة التى اطلق عليها القدماء اصطلاح التشبيه (Anthropomorphism) وأصحابها المشبهة (Anthropomorphists) أى الفكرة

القائلة بتز ويد الله بشيء من الخصائص الأنسانية . على أن الاعتقاد بأن الله مكون على حسب نماذجنا العقلية ، أو أنه صورة من صور الفكر الانساني ، لاعتقاد باطل قطعاً . وعلى الرغم من أن هذا الاعتقاد باطل . فان محاولة الأعتقاد بأن علة الكون يمكن ادراكها بما يبعد عن إدراك ذواتنا ، أمر بعيد بحكم الطبيعة الانسانية ، بل قول هراء لا أثر له من الحقيقة .

لما أراد « فولتير » ان يعارض القول المعروف فى التوراة بأن الله خلق الانسان على مثاله ، قال بأن الانسان هو الذى خلق الله على مثال نفسه . وهذا القول صحيح من كل الوجوه ، وعلى أى من النواحى قلبته وجدته ثابتاً لامبدل له ولامنصرف عنه . والحقيقة ان الاستاذ الدجوى نفسه ، لايستطيع ان يدرك فى الله الا انه مثال مكبر من الصفات الانسانية حتى القول بأن الله ليس كمثله شيء ، فانه قول مستمد من صفات العقل ، لأن العقل الأنسانى مجهول ، وليس كمثله شيء .

لقد حاول كثير من جهابذة أهل النظر وعظماء الفلاسفة ومتطى العلماء ، أن يصلوا الى ادراك الا رادة المدبرة لهذا الكون باسلوب غير هذا الاسلوب فعجزوا ، ولو أنهم غالباً ماحدسوا انهم وصلوا الى الحق . بينما نرى ، اذا ما امعنا النظر فيما أتوا به من الاقوال ، أنهم لم يتبعوا سوى طريقين : ففى الاولى تجدهم وقد ادركوا العلة من طريق المشابهات المستمدة من الخصائص الانسانية ، وقد حوطوا تلك الخصائص بصفات يبعد أن تكون لأبن من أبناء آدم ، وفى الطريق الثانية تلفيهم وقد جعلوها مدركاً مجرداً مقيساً بقسم من الطبيعة البشرية دنىء منحط غير محدود بحد ، بل مطلق إطلاقا اعمى لاغاية له ، ولا نهاية .

خذ لذلك مثلا الفيلسوف الكبير « سبينوزا » . فانه أبعد الفلاسفة عن الاعتقاد بان الله مكون على نموذج عقله ، ومضى فى فلسفته متخيلا أنه اجتاز تلك العقبة الكؤود بان جعل الله عبارة عن «امتداد وفكر» غير ان دكتور «مارتينو» لم يلبث أن نقض فكرته هذه متسائلا :

« من أين أتت له فكرة الامتداد الا من النظر فى حالات جسمه الطبيعية ، ومن اين أتى له أن الله فكر الا من خصائص عقله . ذلك لان الامتداد والفكر ليسا سوى شيئين هما اخص ماتتصف به الاجسام والعقول »

ارجع بعد ذلك الى « هربرت سبنسر » فانه على الرغم من قيامه فى وجه القائلين «بالتشبيه» وعجزه عن انكار الله وعلة العلل ، أخذ يدير وجهه يمنة ويسرة لعله يقع على

شيء يعلل به الكون و يعزو اليه النظام العالمي بحيث يكون بعيدا عن كل شك وريبة فقادته خطواته الى القول بان هنالك « قوة خفية » تدبر الكون ، ظانا انه قد تخطى المصاعب واجتاز العقبات التي قامت في سبيل غيره من الفلاسفة الطبيعيين . على انك لو نظرت في فكرته نظرة تأمل لألفيت انه لم يتقدم على من سبقه من المفكرين خطوة واحدة. فكما ان الله عند «سبينوزا» لم يكن الا شبحا انسانيا تمثله في المكان، امتداد وفكر، كذلك كان الخالق عند « سبنسر » عبارة عن تمثل صرف لفكرة غير معينة ، هي فكرة القوة، وهي فكرة مستمدة من احط خصائص الذاتية البشرية : خاصية ادراك الحس. وانت مهما قلبت وجوه الرأي وامعنت في النظر فانك تجد دائما ان فكرة القوة ، كما ثبت من قبل ، مستمدة من قسم من ذاتيتنا أي من ادراك الحس . «فسنبسر» بدلا من أن يجعل الله بعيدا جهد البعد عن الذاتية البشرية كما كان يعتقد، اذ به يتمثله على نموذج مستمد من أحط خصائص الانسان. على ان سبنسر بعد ان حمل على فكرة «التشبيه» لانها تزود الخالق بارقى الخصائص الانسانية ، مستقلا ذلك بجانب الله ، رجع فزلت قدمه قسرا عنه فيما زلت فيه قدم غيره من الفلاسفة الذين تقدموه فزود الله بخصائص مستمدة من احط الصفات التي يشارك فيها الانسان أدنا. الحيونات ، بدلا من أن يتركه مزودا بارقى الخصائص الانسانية

من الظاهر ، بناء على ذلك ، انه في كل المباحث التي تتعلق بالنظر في أصل الاشياء، لا يجب مطلقا ان نتساءل عما اذا كنا نصور « علة الكون » على نسق مستمد من ذاتيتنا ، لأن تصوير العلة على نسق الذاتية البشرية أمر لا يمكن ان نتصرف عنه ذات فانية ، بل الواجب أن نتساءل دائما عما اذا كنا نصورها على نسق مستمد من نظريات سطحية ، أم نصورها على نموذج مرجعه الوسعة في النظر ، والالفة التامة الموافقة لطبيعة العقل الانساني ونظامه .

فاذا كنا لا نستطيع أن ندرك من علة الكون الا نموذجا يرجع تصويره الى تجاربنا الذاتية ، فمن الظاهر ان اعتقادنا في وجود إرادة عاقلة أي علة خالقة ، وعدم اعتقادنا، يرجع الى ما ندركه من فكرة السببية . وما دام فهمنا للسببية عائداً الى ما ندركه منها حسب تجاربنا العلمية ، أي انها تنحصر في القياس على السوابق الطبيعية الظاهرة أجلى ظهور ، فمن الجلي أننا لا نرضى في عقليتنا فكرة « التسلسل السببي » ، الا بالاعتقاد بان الاشياء لابد من أن تكون قد نشأ بعضها عن بعض متدرجة في سلسلة منظومة خلال « الزمان » . وهذا أمر يلزمنا الاعتقاد حتما بوجود ارادة عاقلة مخبوءة وراء

الولد العاق الى ضرب أبيه حتى يموت ، وإذا ما أصبح الحق للقوة : لم يبق ثم خطأ ولا صواب (وبين كليهما تقيم العدالة) فيفقدا إسميهما وتضيع العدالة معهما .

« واذا كانت القوة هى كل شيء فى هذا الوجود فالقوة تأتى من الارادة ، والارادة من الشهوة . والشهوة : ذلك الذئب البشرى ، اذا ما استحال الى قوة أصبح العالم فريسة الشهوات ، ويأكل الناس بعضهم بعضا حتى يأكل الاخير نفسه . .

وحب شكسبير للنظام والقصاص يعدل فى عمقه كرهه للفوضى واختلال الاحكام ، على أن دفاعه عن النظام فى الصورة الايجابية التى أوردنا ذكرها فى أبياته السالفة لا يبلغ من القوة ما يبلغه دفاعه عنه فى الصورة السلبية حين يحمل على الفوضى فى خلال قصته « الملك هنرى السادس : الجزء الثانى » ؛ ومن المعقول أنك اذا أردت أن تحمل الناس على حب النظام و اعتباره شيئا لازما للحياة أن تبدأ أولا بتعريفهم ماهو عدم النظام (الفوضى) ، و يمكننا القول بأن المواقف التي صور لنا فيها شكسبير ذلك الشيوعى جاك كيد Jack Cade وأهوال المذابح الفوضوية التى ترتبت على خلل النظام بسببه ـ تكاد تكون تلك القطعة مكتوبة فى هذا العصر ، وينبغى أن توضع فى المكان اللائق بها فى دراساتنا التحليلية ، حتى ليجب أن تحفظ عن ظهر قلب من الرجال والنساء والاطفال و الشيوخ والعمال ورجال الدين على السواء ، وها أنذا أقص عليك طرفا منها وأنا على ثقة من أنى سأثير سرور من لم يسبق له أن اطلع عليها ، كما أنى لن أسيء إلى من سبقت لهم قراءتها حين أعيد على اسماعهم قطعة من أرقى ما كتب فى الادب مما قرؤه فى حياتهم

هنرى السادس ملك ضعيف ، ضعيف إلى حد أنه يعاف القوة . يقول عن نفسه « ليس بين الرعية من يشتهي الملك بقدر ما أشتهى أنا أن أكون فى عداد الرعية » (الفصل الرابع) وهذا الضعف الشديد هو الذى يزرع الفتنة و يلهب المطامع ويثير المؤامرات ، لأن « من لا يعرفون أن يحكموا تجب عليهم الطاعة » ، و يرى دوق يورك (عم الملك) أن « نشأته أسمى من نشأة الملك » فيذهب إلى ايرلندا ويجمع حوله عددا من الانصار ، وفي الوقت نفسه يسعى لاثارة زوبعة فى انجلترا ، فيقع اختياره على قسيس على شاكلته هو « جاك كيد » من « أشفورد » فيبعثه

لدس الدسائس وإثارة الفتنة تحت إسم مستعار هو « جون مورتيمر » الذى مات ولكنما كان « كيد » يشبهه كل الشبه ، في شكله ومشيته وحديثه ، و « كيد » هذا من أصل وضيع : أبوه بناء وأمه مولدة ، وكان الناس يطلقون عليه « جاك كيد » بائع الثياب القديمة (رو بابكيا) ويزعمون أن زوجته ابنة أفاق وأنها كانت تبيع الاشرطة والسجف ولكنها الآن وقد أصبحت عاجزة عن تحمل مشاق السفر قعدت فى دارها تغسل الثياب للناس ، على أنه لم يكن ثمة أحد يستطيع أن ينكر على « جاك كيد » أنه لا يهاب السيف ولا النار ، وأنه شجاع مقدام ، والواجب أن يكون جسورا . لأن التسول إن هو إلا جسارة .

ينجح « جاك كيد » هذا فى عمله ويجمع حوله جيشا من العمال الصباغين والقصابين والنساجين ومن هم على شاكلتهم ، وينتحل لنفسه أنه حفيد أسرتى « مورتيمر » و « بلانتجنت » ، وبعد أنصاره بأصلاح الدولة وخضد شوكة الملوك والأمراء والنبلاء وبأن يضع مكان هؤلاء نظام الشيوعية ، ويستثير حماس جنوده قائلا لهم : « كونوا شجعانا إذن ، لأن قائدكم شجاع ، وقد أقسم على أن ينفذ الأصلاح المنشود ؛ وحينئذ سوف يكون الخبز سبعة بقرش . الخ . الخ ..

وعندما أصبح ملكا عليكم (لأنى سوف أكون ذلك الملك) ... ، فيصيح جنوده « رعي الله جلالتكم ! » ويجيبهم هو « أشكركم أيها المجاهدون الأبرار ؛ سوف لا يكون ثم نقود ؛ ستطعمون جميعكم وتشربون (على حسابى) وذلك على قدم المساواة كيما تحبوا بعضكم كالأخوة وتنزلونى منكم منزلة أبيكم »

ثم يحدث أن يقترح أحد القصابين - واسمه « ديك » - ويوافقه « جاك كيد » على قتل جميع رجال القانون ، وكل من يضبط متلبسا بجريمة القراءة والكتابة وعمل العمليات الحسابية ، وإذن فقد أشهرت الحرب أول ما أشهرت على العدالة والتعليم ، وبناء على ذلك يقبض على كاتب فقير ويسجن ثم يؤتى به أمام جاك كيد فيحاكم ويحكم عليه على الطريقة الآتية :

« س - هل اعتدت أن تكتب أسمك ؟ وهل لديك ماتميز به نفسك كما يفعل الرجل الشريف »

جـ ـ اشكر الله ياسيدى على أنى نشأت نشأة حسنة و أنى استطيع أن أكتب اسمى.

الجميع : ها هو قد اعترف ، خذوه وغلوه ، ويح الشرير ! ويح الخائن !

ويقول كيد : نعم ، نعم ، خذوه ! اقول لكم خذوه وعلقوه فى المشنقة ، وقلبه ودواته حول رقبته »

فى ذلك الوقت تتقدم قوات الملك يقودها الضابطان « همفرى » و « وليم ستفورد » ؛ ويبذل هذان الضابطان كل جهد لاقناع الشعب الثائر ليعود إلى الاخلاص والولاء للعرش ولكنهما يفشلان فلا يجدان بدا من محاربة الثوار فيعودان ليستعدا للقتال

ولا يضيع جاك كيد الوقت سدى فيقبل على اتباعه والأنصار ويخطبهم قائلا « أنتم يامن تحبون الشعب اتبعونى ، هيا فاظهروا أنفسكم الآن رجالا فى سبيل الحرية ؛ يجب أن لا يفلت من بين أيدينا أى واحد من اللوردات أو النبلاء . لاتبقوا على أحد إلا من صار فى صفوفكم ... أولئك الأشراف المترفون يودون لو كانوا فى مكانكم ولكنهم لا يجرءون »

ويجرؤ « ديك » القصاب حينئذ على مقاطعة قائده إذ يرى قوات الملك تتقدم نحوهم فيصيح قائلا « أنهم يتقدمون للهجوم علينا فى نظام محكم » فيجيبه كيد فى وثوق الشجاع المقدام المعتد بنفسه « انا أفضل ما نكون نظاما حين نسير بغير نظام ... هيا يارجال سيروا إلى الأمام ! ! » (الفصل الرابع)

يتقاتل الفريقان فتهزم قوات الملك ويذبح كل من « همفري » و « وستفورد » وحينئذ لم تبق أمام « كيد » عقبة تعوقه عن مواصلة السير إلى لندن . غير أن صديقه الأمين « ديك » القصاب يشير عليه من طرف خفى أن يفتح أبواب السجون ويطلق سراح المسجونين فيقترح « كيد » هذا بل يأمر به

وما يكاد القائد الشيوعى يطأ لندن بقدميه حتى يصطف حوله أنصاره فى « كانون ستريت » (شارع المدفع) ويقف هو بينهم خطيبا قائلا « الآن قد أصبح « موريتمر » حاكم هذه المدينة وسيدها ... و ها أنذا الآن وأنا واقف فوق هذا الحجر فى ركن من احد شوارعها آمر لم وأطلب اليكم ان تعملوا طبقا لرغبتى فتجعلوا هذا اليوم - الذى هو اول أيام حكمى - يوم عيد عام ، يجرى فيه النبيذ بدل الماء .... وسوف تعتبر خيانة عظمى ابتداء من اليوم ، مناداتى بغير « اللورد موريتمر »

ومن سوء حظ جندى مسكين أنه لم يسمع ذلك الخطاب ، فلما أقبل هذا الجندى التعس بعد الانتهاء من الخاب ، ليبلغ رسالة الى القائد ناداه صارخا جاك كيد! جاك كيد ، - خذوه بعيدا عنى ! وليعدم حالا !! هكذا نفذ اللورد مورتيمر أمره ، فلم يلبث ذلك المنكود الحظ ان اصبح جثة هامدة

فى هذه اللحظة يتقدم « ديك » القصاب و يقول:

- مولاى اللورد ؛ إن جيشا يتجمع فى سمثفيلد

- تعال إذن لنذهب الى محاربتهم . ولكن عليك ان تذهب أولا الى كبرى لندن فتشعل فيه النار ، واذا استطعت فاحرق البرج كذلك ، وانتم يارجالى هيابنا ، اتبعونى .

يتبدد الجيش المتجمع فى سمثفلد ، ويصبح « كيد » تقريبا الحاكم لمدينة لندن فيتقدم اليه « ديك » القصاب فى خضوع وخشوع إن « لى رجاء اذا سمح سيدى اللورد بابدائه » فيجيبه كيد « لوأنك طلبت منى أن أجعلك لوردا من أجل هذه الكلمة لفعلت » يقول ديك « إن كل ما أرجوه هو أن يكون قانون انجلترا من مخارج فيك » . . . وحينئذ يهمس جون - أحد رفاق كيد - فى أذن زميله سمث الغزال « ويح تلك القوانين التى تصدر من فم ذلك الغر المفتون! إنها ستكون مثل السهم الطائش لايعرف أين يكون مستقره » ويجاوبه سمث « هذا صحيح ياجون إنها بلا ريب ستكون قوانين نتنة يفوح بها نفس كريه » . . . ويلتفت « كيد » فى هذا الوقت نحو القصاب قائلا « لقد فكرت فى الامر وأرى أن يكون لك ما أردت فاذهب إذن وأحرق جميع سجلات الدولة ، ومن الآن فصاعدا سوف يكون فمى برلمان انجلترا » وحينئذ يقف جون جانبا ويقول « إذن سوف تكون لدينا تماثيل عضاضة اللهم إلا اذا خلعنا له أسنانه » ويستأنف « كيد » حديثه « هكذا ستجري الامور من الآن »

حقا إن الغاية التى يرمى اليها الشاعر (شكسبير) لايمكن أن تكون أكثر وضوحا من هذا. لماذا يعرض علينا كل تلك المساخر والمهازل لماذا يمثل لنا ذلك القائد الشيوعى والغوغاء من خلفه فى صورة مجسمة من الجهل والوقاحة والطيش والقسوة أقول لماذا يفعل الشاعر هذا اذا لم يكن يرمى الى الاشادة بمحاسن « النظام » وحفاظ النظام

الدهماء والاوباش شيئان كان يكرههما شكسبير كل الكره ولم تسنح له فرصة فى وصف الشعب كهيئة سياسية ألا صب عليها جام سخطه وأعرب عن عدم استطاعته

والتطور من حالته السديمية مرتقيا نحو تكوين النجوم الثوابت والسيارات ، الى ظهور النباتات والحيوانات والانسان . اذا تخلينا ذلك وجدنا أن لغة العلم تلقى فى روعنا دائما أن الاسباب التى ظلت مؤثرة فى العالم بالامس هى بذاتها الاسباب التى تعود اليها القوى التى نلفيها مؤثرة فى العالم اليوم ، وان هذه القوى بعينها هى أسباب ما سوف يحدث من الظاهرات فى المستقبل . ومحصل القول أن كمية المادة والحركة المبثوثة فى العالم اليوم ، كانت كذلك بالامس . وستظل كذلك فى المستقبل وان تغيرت صورها. إذن فهذا القول يدل على أن عوالم الامس واليوم والغد ، ماهى إلا عوالم متصلة بروابط ضرورية يقتضيها بقاء مقدار من القوة لا يتغير كماً ، وإن تغير كيفاً . من هنا تتدرج الى أساس ذلك ، فنجد أن هذا القول لا يوازى شيئا أكثر من تلك القضية الضرورية المشابهة لذلك القول ، قضية أن اثنين واثنين يؤلفان أو يسيان اربعة ، أو أن الاربعة لا تخرج أبدا عن كونها نتيجة أو معلول اثنين واثنين أو ما يساويهما . وليس فى ذلك من معنى السببية الحقيقية اكثر من أخذك قطعة من الصلصال ذات صورة ما فى احدى يديك ثم تضغطها فتأخذ صورة اخرى غير صورتها ، ثم صورة ثالثة ، ثم صورة رابعة ، ثم تدعى أن الصورة الاولى علة للصورة الثانية ، وأن الثانية علة للثالثة ، وان الثالثة علة للرابعة — وهكذا دواليك الى ما لا نهاية .

والحقيقة الثانية أن اصطلاح « السبب » كما يستعمل فى المعنى العلمى : اصطلاح مرض لغويا فقط ، وليس اصطلاحا فلسفياً . وما الاسباب العلمية الا نتائج منظومة. فالحجر اذا قذف الى أعلى يعود الى الارض . ولماذا ؟ لأن جاذبية الثقل تجذبه ثانية الى أسفل . هذا كما لو قلت: لان كل الاشياء ترى عائدة الى الارض تحت تأثير الظروف المحيطة بذلك الحجر . ولكنك اذا تساءلت لماذا تسقط الاشياء اصلا ؟ ولماذا يكون للجاذبية ضلع فى نظام الكون ؟ فهنالك لا تجد من جواب أروح على نفسك وأحفظ لألفة عقلك ، من القول بانها هكذا سبقت فى ارادة الله ! ! !

ولو أردنا أن نستطرد فى اثبات أن السببية العلمية ليست سببية حقيقية ، فلدينا تلك الحقيقة العظمى . حقيقة إن « العلم » يستعمل كلمتى « السبب » و « السنة » بالتناوب لتقوم إحداهما مقام الاخرى . فعند ما اكتشفت « سنة » الجاذبية الثقل مثلا ، فسرت بها حركات الاجرام السماوية التى لم يكن لها مفسر من قبل . حتى أن سقوط الحجر الى الارض قد تناوله هذه السنة . وهكذا الحال فى الوقت الحاضر اذا اكتشفت أية سنة أخرى. ذلك لانها تعيننا الأسباب التى يرجع

اليها وقوع كثير من النتائج التى كانت مصادرها غامضة علينا من قبل. وما دام السبب والسنة لا يزال كل منهما فى نظر العلم على هذا التخالط ، فمن الظاهر الجلى أن السببية العلمية ليست سببية حقيقية على اطلاق القول ، اذ أى شىء من الأثر ينتج عن نظام تتالى الظاهرات ، فى البيان عن العلة الحقيقية التى تنتجها ؟

...

المحصل

نقف بهذا البحث عند هذا الحد — ولا نتورط فى الذهاب فيه لاكثر من هذا . وغالب الظن أن فى هذا القدر كفاية لكى نظهر للشيخ الدجوى أن اعتقاده فى الله لايفضل اعتقاد أشد الماديين تعلقا بالمادية ، واكبر الزنادقة تمسكا بالزندقة ، لان الجميع يستوون عند الحد الذى يضطرون فيه الى القول بالعلة الاولى على انها فرض ضرورى ليحتفظوا بألفة عقولهم . والى هذه النتيجة تؤدى سلسلة البرهان التى ساقها الاستاذ الدجوى فى مقاله هذا .

أما اذا أردنا أن نجمل الرأى فانا نصل الى الآتى :

أولا — فكرة الله فرض ضرورى للاحتفاظ بألفة العقل

ثانيا — الاحتجاج بان العلم لايعترف بوجود الله قول فاسد ، لأن العلم يضطر الى التسليم ببعض الفروض الضرورية فى الطبيعة ليستطيع أن يعلل الظاهرات ، كما يفرض العقل وجود الله ضرورة ليحتفظ بألفته .

ثالثا — السببية أو العلة الحقيقية تتضمن ضرورة فكرة الارادة ، وأن ألفة العقل البشرى اذ تتطلب سببا للكون المرئى ، فان ألفة العقل تسوق الى الاعتقاد بأن هذا الكون معلول لارادة عاقلة أى خالق .

رابعا — ليس معنى هذا أنك تعرف أو تعلم للخالق وجودا حقيقيا ، اكثر مما تعرف أن للعالم الخارجى المحيط بك وجودا حقيقيا . ذلك لان كل ما فى مستطاع الانسان ان يصل اليه فى هذا الصدد ، هو انه لايستطيع أن يحتفظ بألفة عقله الا بالاعتقاد فى وجود ارادة مثل ارادته تدبر الكون

خامسا — تتضمن السببية الحقيقية لفكرة الارادة ضرورة عقلية لا ينفك عنها الانسان

سادسا — السببية العلمية لاتتضمن فكرة الارادة ، بل تتضمن فكرة التسلسل ، ولذا فهى ان عللت الظاهرات ، فانها تعجز عن تعليل الكون فى مجموعه .

وبعد فهذه ياسيدى الاستاذ هى النتائج التى تترتب على فكرتك وبرهانك فى الايمان بالله ، وهى نتائج لاينازعك فيها مادى ولا طبيعى ولا ملحد ولا زنديق من طابع ابن الراوندى .

هذا ولايغيب عن ذهنك أن هذا هو الطريق الوحيد الذى يمكن للعقل البشرى أن يسلكه ليكون فكرة ما فى وجود علة للكون أو خالق . فاذا وافقتنا على ذلك فانت ولله الحمد من زمرتنا أحرار الفكر ، واذا لم توافقنا فعرفنا الى الله طريقا آخر ولك اجر المحسنين .

والنهاية أن هذه الافكار ذاتها قد نشرتها ودافعت عنها منذ عشر سنوات ولا ازال شديد الاستمساك بها . فلا يسبق الى ذهن الاستاذ أنها جديدة علينا .

ولقد كنا نود أن تكون « نور الاسلام » مجالا للبحث الحر المجدى فى حقيقة الاسلام باعتباره نظاما اجتماعيا اعلى ، وباعتباره شريعة مثلى . مجالا للبحث التاريخى المثمر والاستقصاء الجامع لشتات مانشر فى الاسلام والمسلمين فى الشرق والغرب ، ومناقشة الآراء مناقشة يستهدى فيها باسباب الادب المرضى والموعظة الحسنة ، فاذا بنصفها سباب فيمن ينعتهم الاساتذة ـ سامحه الله ـ بالملحدين كيدا لا اقتناعا ، وباطلا لاحقا ، واذا بالنصف الآخر محاولة لاثبات الايمان بالله تؤيد وجهة النظر المادى ضرورة وعن غير اختيار .

وانا لنرجو لنور الاسلام سعة الانتشار والعمر المديد تقضيه فى خدمة الاسلام والمسلمين .

اسماعيل مظهر